فكاهات

روايتان

قتيل والديهِ [1]

كان في مدينة طرابلس رجلٌ واسع الثروة عظيم الجاه يقال لهُ حسيب افندي ... ولم يكن لهُ ولدٌ فكان كلما نظر الى ما لديهِ من بسطة الغنى والاملاك الكثيرة ورأى ان لا وارث لهُ من عقبهِ يضيق صدرهُ ويرى ذلك الغنى سبباً لتنغيص عيشهِ ولم تكن امرأتهُ اقلّ ابتئاساً منهُ فكانا يبتهلان الى الله حتى رزقهما ولداً ذكراً فسمياهُ جبرائيل وعكفا على العناية بتربيتهِ فنشأ في الرفاهية والدلال وكانا شديدي الحرص عليهِ لا يدعان رجليهِ تطآن الارض ولا يديهِ تمسّان شيئاً خشناً ولا يتركان للنسيم الى بدنهِ ممرًّا . ولما بلغ من العمر عشر سنوات ارسلهُ والداهُ الى المدرسة واوصيا الاساتذة ان لا يكرهاهُ على الدرس لانهُ وحيدهما وكان بالقُبَل صباحاً مشيّعاً وبالقبل مساءً مستقبلاً . اما جبرائيل فكان يظن نفسهُ في المدرسة كانهُ في بيت ابيهِ يلطم الخادم فتضحك والدتهُ للطمهِ ويسبّ الخادمة فتُظهر الابتهاج لسبهِ ويسخر بابيهِ فتبسم لهُ ويشتمها فتقابل شتمهُ بالتقبيل ويسخط فتسترضيهِ حيناً بلثم وجناتهِ ويديهِ وطوراً بان تضرب نفسها او من يكون الى جانبها

(١) بقلم ابرهيم افندي بركات

حتى نشأ على هذه الخلال الذميمة فاستمرّ في المدرسة تابعاً الخطة التي كان عليها في قصر ابويهِ فبدأ يلطم رصفآءهُ ويهزأ برئيسهِ ويتطاول على استاذهِ حتى اذا تمادى على ذلك اخذهُ الرئيس اليهِ وشرع يعنفهُ على سوء مسلكهِ وينصح لهُ باحسان سيرتهِ فرجع في ذلك المسآء الى امهِ شاكياً متظلماً وهو يشتم المدرسة وارابها وقد صمم ان لا يعود اليها. فاستقبلتهُ امهُ بالبشاشة والحنان واخذت تارةً بالدعآء لهُ واخرى بالتسخط على رئيسهِ واساتذتهِ ووعدتهُ بان ترسلهُ الى مدرسةٍ اخرى. ولما دخل المدرسة الثانية بل الثالثة لان حضن الامّ كان هو المدرسة الاولى صرف اوقاتهُ فيها في اللعب واللهو والتيه والكبريآء والهزؤ بهذا والاعتدآء على ذاك وولاة امرهِ يضحكون لهُ وفقاً لما اوصتهم بهِ والدتهُ فلم يكن لهُ من مرشدٍ ولا وازع حتى بلغ اشدّهُ على تلك الحال وحينئذٍ سئمت نفسهُ التردد الى المدرسة فخرج منها والاهوآء تتنازعهُ والشهوات تتجاذبهُ والتيه قائدهُ والجهل رائدهُ واتخذ لهُ من العيّارين اخداناً ومن اهل السفاهة اخواناً حتى استحكمت فيهِ طباع الشرّ والفساد وأصبح لا يأوى الى البيت الا في وقت الطعام او الرقاد

وان امهُ لما رأتهُ على تلك الحال اخذت تعاتبهُ على ما هو فيهِ وهي تخاطبهُ بمنتهى التذلل والرقة وقد ندمت على ما كان منها في تربيتهِ وخافت عليهِ سوء العواقب فأخذ منهُ الغضب والعتوّ كل مأخذ واتنهرها وأهانها فلاذت بالسكوت ثم تغفلها ودخل حجرة والدهِ فسرق منها مبلغاً وافراً من المال وخرج واتفق انكان في ذلك اليوم سفر احدى البواخر الى الاسكندرية فركب قاصداً مصر لما كان يسمع عما فيها من الملذات والملاهي والمشاهد

التي تسحر الالباب وتدهش الافكار. فلما عاد ابوهُ اخبرتهُ الام بما جرى لها مع ولدها فلامها على ما فعلت ثم دخل حجرتهُ فوجد ما كان فيها من المال مفقوداً فعرف ان الولد هو الذي اخذهُ فزاد لامرأته لوماً وتعنيفاً . ثم اتصل بهما بعد ذلك ان ابنهما سافر الى القطر المصري فاتفقا على ان يسافرا للبحث عنهُ وفي الاسبوع التالي ركبا قاصدين الاسكندرية ثم اخذا يجولان في البلاد يتقصيان خبرهُ فلنتركهما يبحثان عنهُ ونرجع اليهِ فنقول

لما وصل جبرائيل الى الاسكندرية ونزل الى البرّ وافق وصولهُ سفر قطار الصباح فركب قاصداً القاهرة حتى اذا بلغها واتخذ لهُ فيها مقرًّا نزل يتمشى في الشوارع ويتفقد الحانات وأماكن اللهو والقصف فلم يلبث ان التفّ حواليهِ عصابةٌ من تبعة الملاهي وعبدة الشهوات وأهل السفاهة والفجور لانهم آنسوا في مالهِ كثرةً وفي كفيهِ سخاءً واخذوا يعلمونهُ ما لم يكن يعرفهُ من فنون الخلاعة والفساد حتى انطبعت فيهِ خصالهم ومال الى نقائصهم وكانت دراهمهُ التي سرقها من ابيهِ اقوى عضد وأعظم مساعد

وفي احدى الليالي بينما كان يتنزه في حديقة الازبكية وقع نظرهُ على فتاةٍ رشيقة القوام نجلاء العينين جميلة المنظر صبيحة الوجه غيداء هيفاء تسحر الالباب بلطفها وتدهش العقول بلباقتها فشعر بجاذبية اقتلعت قلبهُ من بين جنبيهِ ووقف يتأمل محاسنها ثم جعل يراقبها كيفما توجهت في الحديقة الى ان خرجت فخرج على اثرها وأخذ يتتبعها من شارع الى شارع ومن زقاق الى زقاق حتى انتهت الى منزلها. وكانت هي قد شعرت بما يخالج خاطر الفتى الغرّ من الولوع والغرام فكانت تارةً تنفر منهُ نفور الظبية فترديهِ بعامل

اليأس وأخرى تزوّدهُ نظرة ايناس فتحييهِ وتلك لذوات الدلال خطةٌ تجعل حبّهنّ في القلوب امكن وأمتن . وعند دخولها منزلها رمتهُ من لواحظها بسهم أدمى فؤادهُ فعاد وهو هائم الافكار شارد اللبّ وقد تيمهُ هواها وأصبح أسير لحظاتها . اما السيدة فاسمها جميلة وكانت قد تركت قرينها لسببٍ بيتيّ وعلقت برجل من ابنآء الاسر الغنية من مستخدمي الحكومة يقال لهُ حظّي بك فاستأجر هذا لها منزلاً وأقامها فيهِ وعين عليها رقبآء وحجّاباً وخصّص بها قلبهُ وأمياله وأفكارهُ معرضاً عن جليلتهِ وولدهِ ... وكان الرجل جافي الطبع مشوّه الخلق الا انها كانت تُظهر لهُ المودّة والشغف طمعاً في سلب مالهِ وكان ينفق عليها من غير حساب

وفي مسآء اليوم الثاني خرجت جميلة على جاري عادتها ودخلت حديقة الازبكية وأخذت تتخطر في جوانبها على أمل ان ترى الفتى ثانيةً وهو كذلك فعل فصادفها هناك الا انهما لبثا يتراقبان من بعيد ولم يكلم احدهما الآخر وهي تلحظهُ من طرفٍ خفيّ ثم تبدي لهُ الاعراض والدلال فأصبح واقفاً معها بين الرجآء واليأس متقلباً بين الشك واليقين

وأحلى الهوى ما شكّ في الوصل ربُّهُ وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي

ولما اصبح غير قادر على احتمال لواعج الهوى شكا امرهُ الى صاحبٍ لهُ يقال لهُ فريد بعد ما باح لهُ بهواهُ وأطلعهُ على مكنون سرّهِ واستنجد بهِ على ادراك امنيتهِ فلما علم صاحبهُ ان التي يهواها هي جميلة وكان الآخر ايضاً مولعاً بها وقد اعجزتهُ فيها الحيل اخذتهُ الغيرة وأضمر السوء لكليهما فقال لهُ أمثلك يتعذر عليهِ الوصول الى غايتهِ . فقال جبرائيل وكيف لي بذلك .

قال انك تعلم انهُ ليس من وسيلة لاستمالة الغواني مثـل الجود فجد اليهنّ تسد عليهنّ . قال وبأيّ سبيل اتوصل الى ذلك وليس بيني وبينهـا معرفة . قال عليك بمكاتبتها فان وجه الصحيفة لا يخجل ولسان القلم لا يتلجلج ومثلك من ظرفآء الشبان ومهذبيهـم لا يعجز عن كتابة رسالة يودعهـا من رقّة الاشواق ولطف الصبابة ما يستميل بهِ فؤادها ويملك قيـادها . قال نعم الرأي رأيك ولكنّ اشتغال بالي يمنعني من ان أحسن انشآءَ مثل هذه الرسالةّ فهل لك ان تصنع الى صديقك هذا الجميـل وتنشئها لهُ . فأطرق فريد هنيهةً (لانهُ كان اجهل من جبرائيل) ثم قال « حالي كحالك ايهـا الصبّ الشجي » فربما لا تجود قريحتي الآن بما يوافق المقام فالاحسن أن تذهب الى احدى المكاتب فتشتري لك كتاب « دليل العشاق » فهناك تجد ضالتك المنشودة . فشكر جبرائيل صاحبهُ على هذا الرأي وافترقا وكلٌّ منهما مهتمٌّ بأمرهِ . اما فريد فبعد ما انصرف عمد الى رسالة كتبها الى حظي بك يخبرهُ بخيانة جميلة لهُ وتعلقها بالفتى الغريب وأرسلها بدون توقيع فلما وصلت الرسالة الى حظي بك دبّت عوامل الريب في صدرهِ فأخذ يراقب حركات جميلة وسكناتها وينظر اليها بعينٍ غير العين التي كان ينظر بها اليها من قبل . وعرفت جميلة ذلك منهُ فأشفقت من سوء العاقبة واخذت تؤامر نفسها في وجود وسيلة للتخلص منهُ ثم قالت في نفسها اذا كان هذا الغبي المغرور قد خان حليلتهُ وترك اولادهُ في سبيل حبّي انا التي خانت بعلها .. أفيصعب عليهِ ان يخونني انا ايضاً ويتعلق بغـيري فلا خير في البقآء معهُ ومذ ذاك اضمرت لهُ الشرّ والانتقام واضمار الشرّ والانتقام من طبع الغانيات . . .

وأما جبرائيل فمضى واشترى الكتاب وأقبل يقلب صفحاتهِ حتى ظفر بغرضهِ منهُ فأخذ طرساً وكتب اليها ما يأتي

يا سيدتي ومالكة رقّي

اكتب اليكِ هذه الكلمات وفي صدري عاملان من اليأس والرجآء فاني منذ وقعت عيناي على محياكِ الباهر وجدت نفسي على حدّ ما قال الشاعر

وقف الهوى بي حيث انتِ فليس لي متأخّرٌ عنهُ ولا متقدّمُ

ولكني وجدت من المهابة ما احجم بي عن الدنوّ من هيكل جمالكِ المعبود او شكوى ما فعلت لحاظكِ في فؤاد اسيركِ المفؤود فبحقّ حسنكِ الذي سدتِ بهِ العالمين الا ما رحمتِ هذا الفؤاد المعذّب وأنعشتهِ ولو ببارقة املٍ هي حياتهُ ان رضيتِ لهُ الحياة والا انقلبتُ انشد مع الشاعر الآخر

تمنّت سليمى ان نموت بحبها وأعذب شيءٍ عندنا ما تمنّتِ

والسلام من عبدكِ الرقيق جبرائيل ...

ثم ختم الرسالة وانطلق بها الى منزل محبوبتهِ فدفعها الى البوّاب وأوصاهُ ان يسلمها الى ربّة المنزل بعد ان أدّى لهُ شيئاً من المال وانصرف خشية ان تستريب بهِ العيون . فسُرّ البواب بالعطية ودخل في الحال الى سيدتهِ وسلمها الرسالة فلما قرأتها هاجت تلك العبارات عوامل الشوق في قلبها حتى لم تعد قادرة على منع نفسها من اظهار ميلها الى كاتب تلك الرسالة فسألت البواب مَن ذا الذي اعطاكَ هذه الرسالة . فقال هو شابٌّ لطيفٌ أديب جميل المنظر حسن الزيّ اعطانيها لادفعها اليكِ ومضى . فعلمت ان الذي جآء بها هو نفس محبوبها الجديد فازداد فؤادها اشتعالاً بنيران الوجد

ولما انصرف البواب عادت الى قرآءة الرسالة ثم تأملت حالها مع ذلك البك الجافي ووقوفهِ حائلاً بينها وبين محبوبها

فاستمطرت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقت ورداً وعضَّت على العناب بالبردِ

ولما كان مسآء ذلك النهار تبرَّجت وتضمَّخت وخرجت للتنزه حتى دخلت الازبكية وأخذت تمشى فيها وكلها نواظر تتلفت وآذان تتسمع وحانت منها التفاتةٌ فرأت حبيبها عن بُعدٍ مقبلاً اليها من احد جوانب الحديقة وقد كان ينتظرها هناك ولما التقيا غلب عليهما الحب فأسكتهما وأوسع لنواظرهما المجال فأخذا يتبادلان نظراتٍ تحدّث بما في فؤاديهما من الحبّ المتبادل . ثم اخذا يتمشيان بين تلك الخمائل حتى غابا بين اغصانها المتدلية واوراقها الكثيفة ولما اصبحا بمعزلٍ عن الرقيب والواشي وقد انس بعضهما ببعض انحلَّت عقدة لسانيهما فاخذا يتطارحان من حديث الهوى ما كان ارقّ من النسمات المارّة بين عذبات تلك الاغصان واشجى من تغريد الاطيار المتنقلة على رؤوس الافنان. ولما فرغا من شكوى الجوى ووثق كلٌّ منهما بما يضمر لهُ الآخر من صحيح المودة والاخلاص قالت لهُ اني لأجد من لذة هذه الساعة بيني وبينك ما يعدل كل ما مرّ من ايام حياتي ولكن ... قال ولكن ماذا . قالت ولكني اخاف ان يعقبها من المرارة ما لا تعدلهُ حلاوة هذا الملتقى فان لي رجلاً جافياً عاتياً فظ الطباع واخشى ان يدري بنا فيفتك بك غير راحمٍ شيبتك ولا رائفٍ بجمالك وقد اصبحت من جرآء ذلك خائرة القوى حائرة الافكار يتجاذبني عاملان عامل الشوق والميل اليك وعامل الحذر والخوف عليك . فاجابها جبرائيل ونزق الشبيبة يملي عليهِ

أوَتخالين يا مالكة فؤادي ان حبيبكِ جبانٌ تُرهبهُ صولة عاتٍ او تردّهُ سطوة جبّار او يحسب لاحدٍ في الدنيا حساباً . كلا وهواكِ ولتعلمي اني ممن لا يرجع عن هواهُ حتى ينالهُ ولو كلفهُ بذل حياتهِ فاني كذلك تعودت منذ صغري ... قالت نعم ولكن الافضل ان نتخير لاجتماعنا الاوقات التي يكون فيها رجلي غائباً عن المنزل فليكن حضورك اليَّ غداً مسآءً في مثل هذه الساعة . ثم ودعتهُ ومضت مزودةً اياهُ نظرةً ملأت نفسهُ آمالاً فكاد قلبهُ يطير فرحاً وطرباً وراح ينتظر ساعة الميعاد وهو يرى الدقائق اياماً حتى اذا ازف الموعد انطلق نحو حبيبتهِ ومعهُ الهدايا النفيسة لعلمهِ ان ليس للغانيات من جاذب مثل السخآء . واخذ بعد ذلك يتردد عليها فيقتل اوقاتهُ معها بالقصف واللهو وهو غير عالمٍ بالحبائل التي نصبها لهُ صديقهُ فريد لما اخذهُ منهُ من الغيرة والحسد وكان قد ذرى بكل ما تم بين الحبيب وحبيبتهِ فزادهُ ذلك حقداً واحتداماً وكتب ثانيةً الى حفلي باك واطلعهُ على كل خفيٍّ وافهمهُ ان وقت اجتماعهما يكون كل مسآء من الساعة الثامنة الى العاشرة عند ما يكون البك العاشق في منزلهِ مع قرينتهِ واولادهِ ... فلما وصلتهُ الرسالة الثانية انتظر حتى اذا كانت الساعة الثامنة مسآءً اخذ مسدَّسهُ وهرول متنكراً الى منزل عشيقتهِ فتحقق من البوّاب وجود جبرائيل عندها وكمن لهُ ورآء الباب بعد ان اشترى البوّاب واوصاهُ بكتمان الامر . ولما انقضى اجتماع جبرائيل بحبيبتهِ ودعها وخرج فلما وصل الى الباب فاجأهُ البك المتنكر برصاصة من مسدسهِ حلَّت منهُ محل حبيبتهِ في صدرهِ فوقع في الارض يختبط بدمهِ . فاجتمع الجيران على دويّ البارود

ولكن بعد ان فرّ الجاني المتنكر وجآء رجال الشِحنة فنقلوا الجريح الى المستشفى وفيهِ رمقٌ ضعيف فبحثوا في اوراقهِ ليعرفوا من هو فوجدوا انهُ جبرائيل بن حسيب ... الموسر الشهير ولم ترتفع شمس اليوم الثاني حتى انتشر خبرهُ في الجرائد. واما جبرائيل فكانت الرصاصة قد اخترقت صدرهُ وبعد فحص الاطبآء لهُ وجدوا انهُ لا مطمع في نجاتهِ فكانت بقية حياتهِ تعدّ بالدقائق

وكان والدهُ ووالدتهُ قد وصلا في هذه المدة الى القاهرة وهما دائبان في البحث عنهُ وبينما كانا يجولان في احد الشوارع وهما يتنسمان خبرهُ سمعا باعة الجرائد يصيحون حادثة مؤلمة . خبر فاجع . فاشترى حسيب افندي نسخة من الجريدة فاذا فيها خبر ما حل بولدهِ وانهُ موجود في المستشفى الفلاني فكاد هو وامرأتهُ يقعان الى الارض مغشياً عليهما من هول ذلك الخبر ثم تجلدا ونهضا للحال فاتخذا عربةً وانطلقا الى المستشفى وطلبا ان يدخلا على ولدهما ليشاهداهُ قبل موتهِ فأُدخلا عليهِ فلما رأياهُ وهو يجود بنفسهِ تفطرت مرائرهما من الحزن وسقطا الى جانبيهِ يبلاّنهِ بدموعهما وضمتهُ والدتهُ الى صدرها باكيةً قائلةً قتل الله قاتلك .. مَن الذي فعل بك هذا يا ولدي .. واستخرطت في البكآء حتى استبكت كل من حضر . فرفع جبرائيل نظرهُ الى والديهِ متزوداً منهما آخر نظرةٍ وهو غير قادر على الكلام ثم جمع بقية قواهُ فتمتم بالفاظٍ متقطعة لم يفهم منها الا آخر عبارةٍ لفظت بها شفتاهُ وهي قولهُ « انتما قتلتماني » ..... ثم اسلم الروح